

ومنها: أن علوم الغيوب^(١) قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحد من الخلق؛ إلا من ارتضاه الله واختصه^(٢) بعلم شيء منها.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين^(٣).



تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ فَرَّ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَضْفَهُ أَوْ أَنْصَسَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبَّلَ الْقُرْآنَ رَتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ وَبَنِّتْ لِلَّهِ بُنْيَانًا ﴿٨﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْرِكَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْمُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾

﴿١ - ٥﴾ المزمل: المتغطي بشيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه^(٥)، فرأى أمراً لم ير مثله ولا يقدر على الثبات عليه^(٦) إلا المرسلون، فاعتراه عند ذلك^(٧) انزعاج، حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زملوني زملوني»، وهو ترعد فرائضه، ثم جاءه جبريل، فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ». فغظه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ^(٨).

ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغاً ما بلغه أحد من المرسلين؛ فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها! ولهذا

(١) في (ب): «علوم الغيب».

(٢) في (ب): «تم تفسير سورة قل أوحى إليّ. والله الحمد».

(٣) في (أ): «تم تفسير سورة قل أوحى إليّ. وفي (ب): ذكر الآيات».

(٤) في (ب): «وابتدأه بإنزال جبريل إليه».

(٥) في (ب): «له».

(٦) في (ب): «فاعتراه في ابتداء ذلك».

(٧) في (ب): «فاعتراه في ابتداء ذلك».

(٨) كما في «صحيح البخاري» (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

خاطبه الله بهذا الوصف الذي وُجِدَ منه في أول أمره، فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية قومه^(١)، ثم أمر بالصّدْع بأمره وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، ويؤكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل. ومن رحمته [تعالى] أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قم الليل إلا قليلاً﴾. ثم قدر ذلك فقال: ﴿نصفه أو انقض منه﴾؛ أي: من النصف ﴿قليلاً﴾: بأن يكون الثلث ونحوه، ﴿أو زد عليه﴾؛ أي: على النصف، فيكون نحو الثلثين^(٢)، ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾؛ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير وتحريك القلوب به والتعبّد بآياته والتهيؤ والاستعداد التام له؛ فإنه قال: ﴿إننا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾؛ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل؛ أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف حقيقاً أن يتهيأ له ويرتل ويتفكر فيما يشتمل عليه.

﴿٦﴾ ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إن ناشئة الليل﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم، ﴿هي أشد وطئاً وأقوم قِيلاً﴾؛ أي: أقرب إلى حصول^(٣) مقصود القرآن؛ يتواطأ عليه القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

﴿٧﴾ وهذا بخلاف النهار؛ فإنه لا يحصل به هذه المقاصد^(٤)، ولهذا قال: ﴿إن لك في النهار سبْحاً طويلاً﴾؛ أي: تردداً في^(٥) حوائجك ومعاشك يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام.

﴿٨﴾ ﴿واذكر اسم ربك﴾: شامل لأنواع الذكْر كلها، ﴿وتبتل إليه تبتيلاً﴾؛ أي: انقطع إليه^(٦)؛ فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصال بالقلب عن الخلاق، والأتصاف بمحبة الله وما^(٧) يقرب إليه ويدني من رضاه.

﴿٩﴾ ﴿رب المشرق والمغرب﴾: وهذا اسم جنس؛ يشمل المشارق والمغارب كلها؛ فهو تعالى ربُّ المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي

(١) في (ب): «أعدائه».

(٢) في (ب): «في (ب): «فيكون الثلثين ونحوها».

(٣) في (ب): «إلى تحصيل».

(٤) في (ب): «على».

(٥) في (ب): «وكل ما».

(٦) في (ب): «إلى الله تعالى».

مصلحة له من العالم العلوي والسفلي؛ فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره. ﴿لا إله إلا هو﴾؛ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يُخَصَّ بالمحبة والتعظيم والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظاً ومدبراً لأمره كلها.

﴿١٠﴾ فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمّل الأثقال وفعل المُشَقِّ^(١) من الأعمال؛ أمره بالصبر على ما يقوله^(٢) المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله؛ لا يصدّه عنه صاذاً ولا يردّه راداً، وأن يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة [الهجر]، الذي لا أذية فيه، بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن^(٣) أقوالهم التي تؤذيهم، وأمره بجدهم بالتي هي أحسن.

﴿١١﴾ ﴿وذرنى والمكذبين﴾؛ أي: اتركني وإيأهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم؛ فلا أهملهم. وقوله: ﴿أولي النعمة﴾؛ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طَعَوْا حين وسَّع الله عليهم من رزقه وأمدهم من فضله؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾. أن رآه استغنى.

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ (١٢) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ (١٤).

﴿١٢ - ١٣﴾ أي: إن عندنا ﴿أنكالا﴾؛ أي: عذاباً شديداً جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على ما يغضب الله، ﴿وجحيماً﴾؛ أي: ناراً حامية، ﴿وطعاماً ذا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته وكرامة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وعذاباً أليماً﴾؛ أي: موجعاً مفضعاً.

﴿١٤﴾ وذلك ﴿يوم تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾: من الهول العظيم، فكانت ﴿الجبال﴾: الراسيات الصم الصلاب ﴿كثيباً مهيلاً﴾؛ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تَبَسُّ بعد ذلك فتكون كالهباء المتثور.

(٢) في (ب): «على ما يقول فيه».

(١) في (ب): «الثقيل».

(٣) في (ب): «عنهم وعن».

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ ١٥ - ١٦ ﴾ يقول تعالى: اخمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروا، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه، فأخذه الله ﴿أخذاً وبيلاً﴾؛ أي: شديداً بليغاً.

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءَ مَنفُطِرًا بِئْسَ كَانَ وَعْدُهُمْ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ ١٧ - ١٨ ﴾ أي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم خطرُه^(١)، الذي يشيب الولدان وتذوب له الجمادات العظام؛ فتنفطر السماء وتنتشر نجومها^(٢). ﴿كان وعده مفعولاً﴾؛ أي: لا بد من وقوعه ولا حائل دونه.

﴿ إِنْ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ ١٩ ﴾ أي: إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها تذكرة يتذكر بها المتقون وينزجر بها المؤمنون. ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إليه، وذلك باتباع شرعه؛ فإنه قد أبانه كل البيان وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدّر العباد على أفعالهم ومكّنهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم؛ فإن هذا خلاف النقل والعقل^(٣).

﴿ إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ ﴿٤﴾ وَضَعَفُؤُكُمْ وَأَنَّكُمْ عَلَىٰ قُرْبَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلِيمٌ ﴿٦﴾ فَاقْرَأْهُ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِيمٌ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤًا ﴿٧﴾ وَمِنْهُمْ مَرْجُؤًا مَلُؤًا ﴿٨﴾ يَتَّبِعُونَ الْأَقْبَابَ ﴿٩﴾ وَاللَّيْلِ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ وَقَدْ عَلِمْتَهُ الْبُرْجَانَ ﴿١١﴾ وَنَحْمُكَ يَا رَبِّكَ ﴿١٢﴾ ﴾

(١) في (ب): «قدره».

(٢) في (ب): «فتنفطر به السماء وتنتشر به نجومها».

(٣) في (ب): «العقل والنقل».

(٤) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآية كاملة.

وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

﴿٢٠﴾ ذكر الله في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل أو ثلثيه أو ثلثه^(١)، والأصل أن أمته أسوة له في الأحكام، وذكر في هذا الموضع أنه امتثل ذلك هو وطائفة معه من المؤمنين. ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس؛ أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل؛ فقال: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾؛ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي ويبقى منهما^(٢)، ﴿علم أن لن تحصوه﴾؛ أي: لن تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص؛ لكون ذلك يستدعي انتبهاً وعناء زائداً؛ أي: فحفف عنكم وأمركم بما تيسر عليكم سواء زاد على المقدر أو نقص، ﴿فاقروا ما تيسر من القرآن﴾؛ أي: ممّا تعرفون ولا^(٣) يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً؛ فإذا فتر أو كسل أو نرس؛ فليسترخ ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة.

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿علم أن سيكون منكم مريض﴾: يشق عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثيه^(٤) أو ثلثه، فليصل المريض ما سهل عليه، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصلاة قائماً عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة؛ فله تركها، وله أجر ما كان يعمل صحيحاً. ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾؛ أي: وعلم أن منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكفّفوا عنهم^(٥)؛ أي: فالمسافر حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد وقصر الصلاة الرباعية. وكذلك ﴿آخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه﴾: فذكر تعالى تخفيفين؛ تخفيفاً للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول، وتخفيفاً للمريض والمسافر، سواء كان سفره للتجارة أو لعبادة من جهاد أو حج أو

(١) في (ب): «ثلثه أو ثلثيه».

(٢) في (ب): «ومما لا».

(٣) في (ب): «عن الناس».

(٤) في (ب): «وما يمضي منهما ويبقى».

(٥) في (ب): «صلاة ثلثي الليل أو نصفه».

غيره^(١)؛ فإنه [أيضاً] يراعي ما لا يكلفه؛ فله الحمد والثناء؛ حيث لم يجعل علينا^(٢) في الدين من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين هما أمُّ العبادات وعمادها: إقامة الصلاة التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهانُ الإيمان وبها تحصلُ المواساة للفقراء والمساكين، فقال^(٣): ﴿وأقيموا الصلاة﴾؛ أي: بأركانها وحدودها وشروطها وجميع مكملاتها^(٤)، ﴿وأقروضوا الله قرضاً حسناً﴾؛ أي: خالصاً لوجه الله بنية صادقة وتثبيت من النفس ومال طيب، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة.

ثم حثَّ على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وليعلم أن مثقال ذرة في هذه الدار من الخير^(٥) يقابله أضعاف أضعاف الدنيا وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا مادة الخير والبر في دار القرار وبذره وأصله وأساسه. فوا أسفاه على أوقاتٍ مضت في الغفلات! ووا حسراته على أزمانٍ تقضت في غير^(٦) الأعمال الصالحات! ووا غوثاه من قلوبٍ لم يؤثّر فيها وعظ بارتئها ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها^(٧)! فلك اللهم الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ﴾: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا^(٨) يخلو من التقصير فيما أمر به: إما أن لا يفعله أصلاً، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار؛ فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار؛ فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته؛ فإنه هالك.

تم تفسيرها. والحمد لله^(٩).



- (١) في (ب): «من قتالٍ أو جهادٍ أو حجٍّ أو عمرة ونحو ذلك».
- (٢) في (ب): «الذي ما جعل على الأمة». (٣) في (ب): «ولهذا قال».
- (٤) في (ب): «بأركانها وشروطها ومكملاتها». (٥) في (ب): «من الخير في هذه الدار».
- (٦) في (ب): «بغير».
- (٧) في (ب): «منها».
- (٨) في (ب): «تم تفسير سورة المزمل».
- (٩) في (ب): «ما».